

الفصل الثالث

الوصفات الجمالية والوقائية

أولا - الوصفات الجمالية :

اهتم المعتقد الشعبي بالعنصر الجمالى فى الجسم الانسانى بأجزائه المختلفة ، من هذا مثلا الاهتمام بزيادة قوة الابصار أو الحفاظ عليها ، أو اكساب الجمال للعينين ، أو غير ذلك من أعضاء الجسم • ويورد التراث روايات وحكايات عديدة عن تقاليد الاكتحال عند العرب قبل الاسلام وبعده • ويروى الغزالى فى « احياء علوم الدين » عن الرسول صلى الله عليه وسلم قوله : « عليكم بالأئمد عند مضجعكم ، فإنه يزيد فى البصر وينبت الشعر » • وروى أنه كان يكتحل ثلاثا ثلاثا ، أى ثلاث مرات فى كل عين • وفى رواية أخرى أنه اكتحل لليمنى ثلاثا ولليسرى اثنتين^(١١) •

كذلك نقرأ ونسمع عن وصفات أخرى تقوم على تضميد عانة الصبى بعنصر معين بهدف منع نبات الشعر • أو تضميد الموضع المخلوق بهذا العنصر بهدف منع نبات شعر جديد فيه^(١٢) •

كذلك نقرأ عن وصفة أخرى يستخدم فيها بذر الكتان لمنع تشقق الاظافر وتقشرها عند معالجته على نحو معين^(١٣) ، بل ان هناك طائفة من الوصفات التى تستهدف ازالة الشحم من على الارداف ، أو

(١١) انظر الغزالى ، احياء علوم الدين ، الجزء السادس ، مرجع سابق ، ص ١١٤ •

(١٢) انظر النويرى ، نهاية الارب فى فنون الادب ، مرجع سابق ، الجزء الحادى عشر ، ص ١٩ •

(١٣) انظر النويرى ، نهاية الارب فى فنون الادب ، مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٢٦ (حيث يخلط بذر الكتان بالشمع والعسل ، ثم تطلى به الاظافر) •

انقاص الوزن ، أو زيادته .. الخ^(١٤) .

ونقرأ في كتاب طب الركة لعبد الرحمن اسماعيل عن حقنة اللعنة
المرّة . حيث تغلى عدة مواد معا في شحم الخنزير لمدة نصف ساعة وتوضع
في حقنة معدن ، وتعطى كعلاج المهزليات ، اذ يعتقدن أنها جالبة للسمنة .
والطريقة هي أن يقبض على الفتاة بعد غلى السائل ثم تحقن في شرجها ،
ثم تدحرج بعد ذلك الفتاة على الارض . وكانت تلك الطريقة منتشرة
انتشارا واسعا ، ويقول صاحب طب الركة انه على الرغم من الشهرة
الواسعة لهذه الحقنة ، الا أنها يمكن أن تكون عظيمة الضرر وهي في درجة
الغليان^(١٥) .

(١٤) انظر عددا من تلك الوصفات عند الغزالي ، مرجع سابق .
(١٥) انظر نبيل صبحي حنا ، الطب الشعبي . دراسة لكتاب طب الركة ،
فصل في كتاب : دراسات في علم الاجتماع والانثروبولوجيا ، دار المعارف ،
الطبعة الاولى ، القاهرة ، ١٩٧٥ ، ص ٣٩٥ .

ثانياً — الوصفات الوقائية :

هناك طائفة عريضة من الوصفات الطبية — وغير الطبية — التي تستهدف الحفاظ على الصحة العامة أو اكتسابها دون وجود أعراض مرضية محددة •

وأول محور تدور حوله تلك الوصفات مياه الشرب وخصائصها وفوائدها • ومما يلفت النظر الاشارات العديدة في كتابات المؤرخين المصريين (كتاب الحوليات والتقاويم) الى ماء النيل الذي يقول عنه ابن اياس : « •• من أجل منافعها (مصر) ماء النيل المبارك وسرعة هضمه للأكل • قال بعض الحكماء : لولا ماء الليمون على أهل مصر ما عرفوا حلاوة ماء النيل »^(١٦) • ونعرف جميعا المعتقد الشائع عن تأثير ماء النيل على صحة الفلاح واكتسابه للقوة وزيادة قدرته على تحمل الامراض والجوع •• الخ • (خاصة ذلك الماء قبل تكريره — بطينه) •

ويستعرض المقرئ في أحد المواضع الاساليب المختلفة لتكرير ماء النيل ، وهو يقصد بالقطع أساليب أهل الحضرة من أبناء مصر • فيقول : « ••• ويصفى كل انسان هذا الماء بحسب ما يوافق مزاجه • أما الحرورون في أيام الصيف فبالطباشير والطين الارمنى والمغرة والنبق المرصوص داخل (مكب) نوى المشمش الصعتر والشب • وينبغي أن يقطف ما يروق داخل (مكب) نوى المشمش والصقر والشب • وينبغي أن يقطف ما يروق ويشرب ، وان شئت أن تصفيه بأن تجعله في آنية الخزف والفخار والجلود وما يحصل من ذلك بالرشح ، وان شئت طبخته (غليته) بالنار وجعلته في هواء الليل حتى يروق »^(١٧) •

(١٦) ابن اياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، الجزء الاول ، ص

• ١٠٧

(١٧) المقرئ ، الخطط والآثار ، الجزء الاول ، ص ٢٧٦ — ٢٧٧ •

ويتصل بالماء أيضا نصائح خاصة بتوقيت شرب كميات معينة من الماء في أوقات معينة من اليوم • فنحن نعرف رأى المعتقد الشعبي في فائدة شرب الماء على الريق لتجنب الامساك ، أو « لتكرير الدم » ••• الخ • ونقرأ كذلك عند الازرق أن الدواء الذى لا داء معه أن تشرب كل يوم قليلا على الريق ثلاث جرع من الماء الساخن •

أما النصيحة الوقائية العامة فهى تلك الخاصة بعدم الاكل الا بعد الجوع • والتوقف عن الاكل قبل الاحساس بالشبع • وهى النصيحة التى تضمنها الحديث الشريف ، ولكننا نجدها كذلك فى كل كتب الطب الشعبى^(١٨) ، وان كانت ضعيفة الحظ من التأثير فى الممارسة الفعلية • فالناس تأكل عندما تصادف الوجبة فى موعدها أو عندما تدعى الى ذلك ، ويقل الاقبال على الطعام أو يكثر بحسب درجة جودته وشهية الآكل • وان كان ذلك لا ينسحب الا على كل ذى وفرة •

ويقدم الغزالي فى احيائه طائفة من هذه الوصفات التى يستهدى فيها سنة الرسول وهدى الصحابة والمسلمين الاولين • ومن تلك النصائح الطبية الوقائية العامة النص التالى : « ••• قال الحجاج لبعض الاطباء صف لى صفة آخذ بها ولا أعدوها • قال لا تنكح من النساء الا فتاة (؟) ، ولا تأكل من اللحم الا فتيا ، ولا تأكل المطبوخ حتى يتم نضجه ، ولا تشرب دواء الا من علة ، ولا تأكل من الفاكهة الا نضيجها ، ولا تأكلن طعاما الا أجدت مضغه ، وكل ما أحببت من الطعام ، ولا تشربن عليه • فاذا شربت فلا تأكلن عليه شيئا • ولا تحبس الغائط والبول • واذا أكلت بالنهار فتم • واذا أكلت بالليل فامش قبل أن تنام ولو مائة خطوة • وفى معناه قول العرب تغد تمد ، تعش تمشى (اشارة من الغزالي للمثل الشعبى المعروف

(١٨) ينقل ابن بكر الازرق فى تسهيل المنافع ، ص ٦ ، عن أحد المصادر الطبية « . . الداء الذى لا داء معه أن لا تأكل الا بعد الجوع فاذا أكلت فارفع يدك قبل الشبع فانك لا تشكو علة الا علة الموت » .

في عدد من البلاد العربية ، ومنها مصر) « (١٩) •

ثم يورد الغزالي بعد ذلك طائفة من النصائح التي لا يسترشد فيها رأى طبيب ، ولكنه ينسبها الى مصدر أرفع من ذلك ، الى على بن أبي طالب رضى الله عنه (الذي اشتهر في المعتقد الشعبي — من بين ما اشتهر به — بالحكمة) • وهى لا تقتصر على تلك التوجيهات العامة كطهو الطعام جيدا ، أو الشرب على الاكل • • الخ ، ولكنها تدخل بشكل أكثر تفصيلا في تحديد الخصائص الوقائية والعلاجية لبعض أصناف الاطعمة • يقول الغزالي : « • • • قال على رضى الله عنه من ابتدأ غذاه بالملح اذهب الله عنه سبعين نوعا من البلاء • ومن أكل في يوم سبع تمرات عجوة قتلت كل دابة في بطنه • ومن أكل كل يوم احدى وعشرين زببية حمراء لم يرفى جسده شيئا يكرهه • واللحم ينبت اللحم ، والثريد طعام العرب • والبسقارجات تعظم البطن وترخى الاليتين • ولحم البقر داء ، ولبنها شفاء ، وسمنها دواء ، والشحم يخرج مثله من الداء • ولن تستشفى النفساء بشيء أفضل من الرطب ، والسّمك يذيب الجسد • وقراءة القرآن والسواك يذهبان البلغم • ومن أراد البقاء ولا بقاء فليباكر بالغذاء وليقدم العشاء وليلبس الحذاء • ولن يتداوى الناس بشيء مثل السمن » (٢٠) •

ويورد الغزالي بعد ذلك عددا من الآثار التي تتناول بالتفصيل مواعيد الوجبات ، وضرورة الالتزام بأن يضم اليوم وجبتى غذاء وعشاء • ونفهم ذلك في ضوء الاسلوب التقليدى القديم في تنظيم الوجبات ، حيث كان اليوم يضم في العادة وجبتين فقط • حيث يحل الغذاء محل وجبتى الافطار والغذاء عندنا ، بينما يمثل العشاء الوجبة الرئيسية وتتقدم في موعدها عن موعد وجبة العشاء في مجتمعاتنا اليوم • ومن هنا التنبيهات

(١٩) أبو حامد الغزالي ، احياء علوم الدين ، مرجع سابق ، الجزء الرابع ، ص ٩٢ •
(٢٠) الغزالي ، احياء علوم الدين ، مرجع سابق ، الجزء الرابع ، ص ٩١ •

الكثيرة بضرورة التذكير بالعشاء(٢١) •

أما عن ترتيب الاصناف في الوجبة الواحدة فيمثل هو الآخر محور عدد من النصائح والتوجيهات التي تمثل خلاصة المعرفة الشعبية ، وتستهدى في نفس الوقت الهدى الديني بأن تنسب تلك النصائح الى الرسول أو بعض الصحابة ، أو تتخذ من الآيات القرآنية ما يؤيد هذا النصح • وعن ترتيب الاطعمة يقول الغزالي : « ... ترتيب الاطعمة بتقديم الفاكهة أولا ان كانت ، فذلك أوفق في الطب • فانها أسرع استحالة (أسرع تمثلا) فينبغى أن تقع في أسفل المعدة • وفي القرآن تنبيه على تقديم الفاكهة في قوله تعالى (وفاكهة مما يتخيرون) ثم قال (ولحم طير مما يشتهون) ، ثم أفضل ما يقدم بعد الفاكهة اللحم والثريد «(٢٢) •

ونجد في كتب الطب الشعبي طائفة أخرى من الوصنات التي يمكن أن نقول عنها أنها تمثل أسلوبا للعلاج بالطعام • فنقرأ عند ابن أبي بكر الازرق نقلا عن « علماء الطب » : « ... اعتمد مقاومة السوداء بالثرائد الدسمة • ومقاومة الصفراء بالاثيياء الحامضة ، ومقاومة البلغم بالاثيياء المألحة • وأما زيادة الدم فعلاجه بالحجامة(٢٣) • وأحسن أوقاتها فصل الربيع والصيف «(٢٤) • ويوضح الازرق الفلسفة العامة وراء هذا الاسلوب في العلاج بقوله : « ... فاذا كان الغذاء معتدلا صحيحا كان في صحة البدن وتبخرت الطبيعة بخارا صحيا الى القلب فيصعد ذلك البخار الى الدماغ والى جميع البدن بصحته «(٢٥) •

(٢١) يمكن للقارئ أن يرجع الى دراسة عن عادات الطعام تصدرها علماء شكري ، تتضمن تحليسات تاريخية ، ومقارنات جغرافية ، وتصنيفات لتلك العادات حسب المستويات الاجتماعية المختلفة • وهي تستند الى تراث عريض من المؤلفات والكتب الدينية والشعبية ، والى جهد كبير في مجموعة من الدراسات الميدانية التي غطت طائفة متنوعة من البيئات الاجتماعية •

(٢٢) الغزالي ، مرجع سابق ، ج ٤ ، ص ٨٧ •

(٢٣) سوف نتطرق في سياق لاحق الى الكلام عن عملية الحجامة

وصفتها •

(٢٤) انظر ابن أبي بكر الازرق ، تسهيل المنافع ، مرجع سابق • ص ٦ •

(٢٥) المرجع السابق ، ص ٧ •

ولعله يتسق مع هذا الاسلوب في العلاج بالمواد الغذائية التنبيه على خطر بعض الاغذية على الصحة بصفة عامة ، أو خطورتها في خلق بعض الاعراض المرضية . من هذا ما ينقله النويرى عن الباذنجان وخطورته فيقول عنه : « . . . انه يولد السوداء ، ويولد الشدد ، وانه يفسد اللون ويصفره ، ويسود البشرة ، ويورث الكلف ، ويولد السرطانات والصلابات والجذام والصداع في الرأس . وينتن الفم ، ويولد سدد الكبد والطحال » (٣٦) .

ولا شك أن المعتقد الشعبي الحى حول الباذنجان ما يزال يحمل رواسب هذا الموقف (٣٧) .

ولكن الشيء الذى لا يمكن أن يتوقعه القارىء بسهولة أن يتضمن المعتقد الطبى الشعبى طائفة من الاجراءات التى تستهدف الوقاية من المرض عن طريق اعطاء الفرد قدرا ضئيلا من الميكروب (أو من السم) المراد تكوين حصانة لدى الجسم من الاصابة به . أى أن المعتقد الشعبى يعرف فكرة التطعيم الحديثة بكل تفاصيلها الاساسية . من هذا مثلا ما نعرفه عن بعض قبائل البدو حيث تجرى عادة النساء على أن يحرقن صغار العقارب ويصحنها بهون ويضعن من المسحوق على حلقات أئدائهن عند ارضاع أطفالهن تطعيما لهم حتى لا يؤذيهم لسع العقارب (٣٨) .

(٣٦) النويرى ، نهاية الارب ، مرجع سابق ، الجزء الحادى عشر ، ص ٤٤ .

(٣٧) انظر احمد امين ، قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية ، مرجع سابق ، مادة باذنجان .

(٣٨) وردت عملية التطعيم كطريقة للعلاج الشعبى عند بدو الصحراء الغربية ضمن المادة الميدانية التى جمعها الدكتور نبيل صبحى حنا المدرس بأداب القاهرة عن موضوع الطب الشعبى أثناء اجراء دراسته الميدانية لرسالة الماجستير فى موضوع « ديناميات التغير الثقافى فى مجتمع هامشى . دراسة انثروبولوجية على أحد المجتمعات المحلية بمحافظة مرسى مطروح » (رسالة لم تنشر بعد) .

ثم هناك بعد كل هذا حشد من الاساليب الوقائية التي ليست طبية في طبيعتها ولكنها تكاد تكون سحرية خالصة . من هذا مثلا تعليق بعض الاحجار الكريمة على الاطفال أو الكبار لوقايتهم من الاخطار أو الامراض بصفة عامة . من هذا ما نقرؤه في مجربات الديري عن تعليق المرجان على الاطفال لكي يأمّنوا من العاهات (٢٩) . وسوف يأتي الكلام تفصيلا فيما بعد عن الاستخدام الطبي العلاجي للاحجار الكريمة والمعادن ، ولكنى قصدت هنا الاشارة الى استخدامها الوقائية بمعنى عام كل العمومية .